حوليات آداب عين شمس المجلد 53 (عدد إبريل – يونيو 2025)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

توظيف الإبل لدى شعراء القرن الثاني الهجري بين التقليد والتجديد

عبد الرحمن عبد الحميد الشرقاوي*

أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية بكلية التربية الأساسية في الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب– الكويت
aa.alsharqawy@paaet.edu.kw

تاريخ الاستلام: 2025/01/22
تاريخ قبول البحث: 2025/03/16
تاريخ النشر: 2025/06/30

المستخلص:

جدَّد الشعراء المحدثون –القرن الثاني الهجري– في القصيدة شكلاً ومضموناً متخذين من الواقع الحضري الجديد أو الشعوبية أو العبث والمجون أحياناً مدخلاً للتمرُّد على عمود الشعر وهيكل القصيدة، والخروج عن عباءة الشعر القديم وتقاليده، فهل طال هذا التغيير توظيف الناقة –في مشهد وصف الراحلة– في شعرهم؟ هنا يكمن سؤال البحث.

إن التغيير قد طال توظيف الشعراء للإبل "الناقة" في قصائدهم بين عازف عن توظيفها مطلقاً –حمَّاد عجرد مثلاً– أو مُغيّر لمشاعب توظيفها اختصاراً لعدد أبيات الرحلة والراحلة، أو مقلد للشعراء الأقدمين وعلى مهيعهم يسير. وبعد الفحص والنظر في جملة من دواوين تلك الحقبة اتضح جليًّا خلوّ بعضها من ذكر الناقة بعد أن كانت ركيزة في القصيدة الجاهلية، وإن ذُكرت كان التغيُّر الرمزي حليفاً لها بعد أن كانت فأل خير وسبباً للحياة والنجاة حتى صارت رمز شؤم كما عند أبي الشيص، أو مثار سخرية للشعراء الشعوبيّين من العرب وما يتصل بهم من مركب أو ملبس كما في بعض قصائد أبي نواس، أو ربما استعاضوا عنها بوصف السفينة "الحرَّاقة" بدلاً عنها أو مقارنة بينها وبين الناقة كما عند بشار بن برد. ولا ننكر إحسان بعض المقلدين من الشعراء في توظيف الناقة في المدح أو الرثاء أو غير ذلك إحساناً يضارع من سبقهم من الجاهليين والأمويين كما في شعر مروان بن أبي حفصة وابن ميادة وغيرهما.

ولذا جاءت فكرة البحث التي تتغيّا جمع ما تفرَّق واستنطاقه على المنهج الاستقرائي التحليلي سعيًا لإثراء المكتبة العربية بما يخدم حضور الإبل، ويجلّي التطور الدلالي والرمزي لها عبر القرون المتوالية في المدونة الشعرية –خاصة في حقبة مخضرمي الدولتين– والصراع الدائر بين القدماء والمحدثين، وما جرى من تجديد وتمرّد أتى على القصيدة وهيكلها.

الكلمات المفتاحية: الإبل، الناقة، الشعراء المحدثون، مخضرمي الدولتين، التجديد.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب – جامعة عين شمس 2025.

- **المقدمة:**

الحمد لله وكفى، وسلام على عبده المصطفى،وعلى آله وصحبه وسلم،ثم أما بعد:

فلقد وقع اختياري على هذا الموضوع لما للناقة من أهمية عند العرب، ولحضورها في أشعارهم وأمثالهم في الجاهلية وفي العهد الأموي، وتساءلت:

1- هل بقي الشعراء المحدثونمن مخضرمي الدولتين ومَن مات في القرن الثاني الهجري على عهد الأوائل في توظيف الناقة في أشعارهم؟

2- وهل تغيرت رمزية الناقة/الإبل في قصائدهم؟ أو بقي مشهد الرحلة والراحلة حاضراً؟

3- ثم ما الأسباب الداعية للتمرد والتجديد في وصف "الناقة" الراحلة عند الشعراء المحدثين؟

لا جرم، فإنَّ الشعراء المحدثين قد جدَّدوا في القصيدة شكلاً ومضموناً متخذين من الواقع الحضري الجديد أو الشعوبية أحياناً مدخلاً للتمرد على عمود الشعر وهيكل القصيدة، والخروج عن عباءة الشعر القديم وتقاليده كما هو متأصل في كتب النقد الأدبي عند العرب.

ولذا جاءت فكرة البحث التي تتغيّا جمع ما تفرَّق وتحليله واستنطاقه وفق المهج الاستقرائي التحليلي سعيًا لإثراء المكتبة العربية بما يخدم الدراسات التي حامت حول موضوع الإبل، ويجلّي التطور الدلالي والرمزي لها عبر القرون المتوالية في المدونة الشعرية –خاصة في حقبة مخضرمي الدولتين– والصراع الدائر بين القدماء والمحدثين، وما جرى من تجديد وتمرّد أتى على القصيدة وتضاعيفها.

ولقد بحثت في الدراسات السابقة التي تناولت الموضوع من قريب أو بعيد فكانت على مسربين اثنين: دراسات ذات صلة بالإبل عموماً، وأخرى بالتجديد والتمرّد عند الشعراء المحدثين، فأما الدراسات ذات الصلة بالإبل:فمنها بحث منشور في حوليات آداب عين شمس، 2012م بعنوان: (الناقة في الشعر الجاهلي) لحمود الدغيشي، وبحث آخر في كلية التربية–جامعة بابل، 2007م بعنوان: (رحلة الناقة بين الشعر الجاهلي والأموي) لعباس محمد رضا، وكلتاهما في عصر آخر غير العصر المدروس في هذا البحث.وأما الدراسات المعنيّة بالتمرد والتجديد:فجلّها من الكتب التي عنت بالقصيدة العباسية أو بذكر التجديد فيها أو التطرق للمقدمات في العصر العباسي الأول، مثل: (في الشعر العباسي نحو منهج جديد) يوسف خليف، و(مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول) حسين عطوان، و(الشعر والشعراء في العصر العباسي) مصطفى الشكعة، و(شعراء عباسيون منسيون) إبراهيم النجار وغيرهم من أساطين الأدب العباسي فلم أجد عناية خاصة بالإبل في كتبهم، وإنما يمرون عليها عرضاً في سياق التجديد في القصيدة عند المحدثين، فحثثت العزم على استقراء ثلة من دواوين شعراء مخضرمي الدولتين والعصر العباسي الأول –أي من مات بعد 132هـ إلى نهاية القرن الثاني الهجري– من أمثال: بشار بن برد، والحسين بن مطير، وسلم الخاسر، وحماد عجرد، ومروان بن أبي حفصة، وأبي نواس، وأبي الشيص، وابن ميادة، وعبد الملك الحارثي وغيرهم ليكتمل المشهد وتبرز الإضافة بتصوّر التغيرات الحادثة في القصيدة العباسية وتحديداً في مشهد الإبل، ولعل من منافع هذا البحث أيضاً أن يكون هذا الجمع للمواضع الشعرية التي ذكرت الإبل في دواوين شعراء القرن الثاني مهداً لدراسات تنفع الباحثين وتقصر الطريق عليهم.

- **التمهيد:**

لم يزل العرب منذ جاهليتهم الأولىيتماهون مع الإبل احتفاءً بها شعراً ونثراً، ويعرفون صفاتها وأخلاقها وأنواعها وأحوالها، فهي الراحلة النجيبة التي تمخر بهم عباب هذه الصحراء نجاءمن الهلكة والقحط والحروب، وهي نعم الذخر والمال للصبوح أو الغبوق أو للقرىإن ألجأتهم الحاجة لنحرها، وهي بعد الإسلام وقبله الهدي والقلائد لبيت الله الحرام وحجَّاجه والعافين من المسلمين، فكانت على لسانهم شعراً، بل صارت ركيزة من ركائز القصيدة الجاهلية وعمودها، إذ كان الشعراء يبدؤون بالبكاء على الأطلال والنسيب، ثم يصفون الرحلة والراحلة، ثم يدلفون إلى الغرض الرئيسمن القصيدة مدحاً أو رثاء أو غيره، ثم الخاتمة.

ونضرب مثلاً للشعراء الجاهليين بزهير بن أبي سلمى،فهو غالباً ما يُطيل مشهد الرحلة والراحلة عن كونه وصفاً مجرداً بل تشبيهاً لناقته بالحيوانات المتصارعةمن الصياد والكلاب والثور أو البقرة الوحشية، فتراه يصف أجسام الحيوانات المتصارعة: لونها، ومكان وجودها، ويتوغل في وصف نفسيتها وما يستقر بين جوانحها من مشاعر وأحاسيس، فيتماها معها خوفاً ونجاء وحرصًا على الحياة، وبحثاً عن الكلأ وروافد البقاء للفرد والمجتمع.

ولقدجاءت في ديوانه قصائد ثلاث –داليتان وقافيَّة– في غرض شعري واحد (المدح)، وكانت المشاهد التي شبّه بها ناقته بمشهد الصراع –مطاردة الصياد وكلابه للبقرة الوحشية أو الثور– بشكل عام في سياق واحد على هذا الترتيب (أمن ورعي– أزمة واحتدام– حل الأزمة بالهرب والنجاة) وتكون النهاية فيها سعيدة، وكأنها تفاؤل بنجاته وناقته ووصولهما سالمين للممدوح أملاً بالغنى والاستقرار والاكتفاء بما عنده هرباً من شظف العيش الذي أتيا منه.

وأمَّا في العهد الأموي فلم يختلف الأمر كثيراً من حضور الناقة في نموذج القصيدة سيراً على موروث القدماء، وتقليداً لمذهبهم، واتباعاً لسننهم، وخير مثال لذلك ما كان من ذي الرمة غيلان وناقته صيدح ومحبوبته مية، وقد أكثر من ذكر الناقة حتى استحوذت على معظم قصيدته الشهيرة البائية التي تمثل الذروة الفنية في شعره، والتي تربو على مائة بيت جُلّها في مشهد وصف الرحلة والراحلة، وتشبيه ناقته باللوحات الثلاث التي رسمها: لوحة الحمار الوحشي، والثور، والظليم، فتمركزت القصيدة عليها، "إذ شغلته صحبة الناقة عن الاهتمام بمحبوبته، حتى يمكن أن نقول: إنَّ (جسد) القصيدة يتشكل في جوهره من الناقة والتداعيات التي استمدها للتنظير والتشبيه، فأصبحت غاية في نفسها.."(الغيث،145)، فهي ليست مجرد ناقة عادية، ولكنها الوسيلة إلى أعظم غاية، المحبوب، والوسائل لها أحكام المقاصد، فهي محبوبة مُقرَّبة بمقدار النأي والبُعد الذي كان بينه وبين محبوبته ميَّة، فكانت خير صاحب في السفر والرحلة، تصبر على التعب والنصب، وتسمع الشكوى والحنين إذ قطع مُعظم أيامه معها.

نشير إليها ههنا تنبيهاً لاحتفاء الشعراء في العصرين الجاهلي والأموي بالإبل في أشعارهم، وعنايتهم بها، فهل بقي الأمر على حاله في العصر العباسي الأول مع ظهور حركة التجديد والتمرّد مع الشعراء المحدثين؟

المبحث الأول: التقليد في توظيف الإبل عند الشعراء المحدثين

إنَّ النَّاظر في شعر شعراء مخضرمي الدولتين والشعراء المحدثين سيتجلى لعينه الانقسام بينهم بين مقلد ومجدّد، بل وحتّى من جدّد منهم وتمرّد لم يكن ذلك في كل أشعاره وقصائده، ولكن مفرّقًا في بعض القصائد، وخاصة مخضرمي الدولتين تجدهم في أشعارهم الأولى قبل قيام الدولة العباسية متماشين مع القديم، ملتزمين بالتقاليد الشعرية من البكاء على الأطلال ووصف الرحلة والراحلة، لذلك قد تجد الشاعر من المحدثين ممّن تمرّد قد وصف الراحلة وبكى الأطلال، وهذا ظاهر.

لذلك سأعرض ما جمعته من شعرهم في وصف الرحلة والراحلة على طريقة القدماء، وخاصة الشعراء المقلدين للأوائل والسائرين على مذاهبهم من أمثال: مروان بن أبي حفصة، وسلم الخاسر، وابن ميادة، وبعض المتمردين من المجددين كبشار بن برد وأبي نواس وأبي الشيص.

فمن مخضرمي الدولتين الشاعر ابن ميَّادة (ت:149هـ) وكان على مذهب القدماء قال يمدح الوليد بن يزيد(ابن ميادة،57):

هل ينطقُ الربعُ بالعلياءِ غيَّرَهُ*** سافي الرِّياح ومُستنٌّ لهُ طُنُبُ

***

بعنتريسٍ كأنَّ الدَّبْرَ يَلْسَعُها*** إذا تَرَنَّمَ حَادٍ خَلْفَهَا طَرِبُ

وانْسَبْتُ بالدَّلْوأمْشي نَحْوَآجِنَةٍ ***من دون أرجائِها العُلَّامُ والقُطُبُ

إلى الوليدِ أبي العباسِ ما عَجِلَتْ ***ودونَهُ المُعْطُ من نَيَّانَ والكُثُبُ

وقال أيضاً في سياق الحب والحنين بعد خروج أم جُحدرٍ مع زوجها إلى الشام(ابن ميادة،132):

ألا حيّيَا رسمًا بذي العُشِّ مُقفرا*** وربعاً بذي المَمْدُورِ مُسْتَعْجِمًا قَفْرَا

***

فلا وصلَ إلَّا أنْ تُقَارِبَ بَيْنَنَا*** قَلائِصُ يَجْسُرنَ الفلاةَ بِنَا جَسْرَا

غُرَيْرِيَّةُ الأنسابِ أو مَاطِلِيَّةٌ *** تُنَازِعُ أيدي القومِ ملويةٌ سُمرَا

وقالَ أيضًا(ابن ميادة، 162):

أهاجَ لكَ الشَّوقَ الطلولُ الدّوارسُ*** عفاهُنَّ سَفسافٌ من الشربِ يابسُ

منازلُ أسقاهنَّ غادٍ ورائحٌ ***وسارٍ سرى من آخرِ الليلِ راجسُ

وآخرُ عهدِ الوصلِ من أمِّجُحدرٍ *** بذي العشِّ إذْ رُدَّتْ عليها العرامسُ

عر امسُ ما ينطقنَ إلَّا تَبَغُّمًا ***إذا أُلْقِيَتْ تحتَ الرِّجالِالطَّنَافِسُ

ومن أجلِها كَلَّفْتُها النَّصَّ والسُّرى*** وأشعثُ قد نَبَّهته وهو ناعسُ

وقال(ابن ميادة، 199):

ألا ليتَ شعري هل أبيتنَّ ليلةً***بِحَرَّةِ ليلى حيثُ رَبَّتني أهلِي

بلادٌ بها نيطتْ عليَّ تمائمي ***وقُطِّعنَ عنِّي حين أدركني عقلي

وهل أسمعنَّ الدهرَ أصواتَ هجمةٍ*** تطالعُ من هَجْلٍ خصيبٍ إلى هجلِ

صُهَيْبِيَّةٍ صفراءَ تُلقي رباعها ***بمنعرج الصَّمَّانِ والجَرَعِ السَّهلِ

تحنُّ فأبكي كلَّما ذرَّ شارقٌ*** وذاكَ على المشتاقِ قَتْلٌ من القتلِ

كل تيك الشواهد على مذهب القدماء، لم يخرج عن سياقهم، بل لو عددناه مع الشعراء الأمويين ما كذبنا، فالعصور الأدبية ليست يوماً فاصلاً بين حقبتين، بلهي مدة زمنية تُحدث تجديداً ظاهراً في الأسلوب أوالطريقة أوالمذهب حتى يغلب هذا التجديد على سمت تلك الحقبة ويشيع، ولكنّا نلتزم بما ابتدأنا به في المقدمة من تحديد الحقبة المرادة من قيام الدولة إلى نهاية القرن الثاني الهجري.

وقد درج توظيف الناقة/الإبل في أشعار القدماء ومَن تبعهم مِن العباسيين على تصورات وأفكار محددة، وموضوعات معروفة، وخير من يمثل هذا الاتجاه –أعني تقليد القدماء– هو مروان بن أبي حفصة (ت:182هـ) وقد نبّه على ذلك صراحة الأصمعي في خبر رواه الأصفهاني في الأغاني: "عن الرياشي قال: سُئل الأصمعي عن بشار ومروان أيهما أشعر؟ فقال: بشار؛ فسئل عن السبب في ذلك، فقال: لأن مروان سلك طريقاً كثر من يسلكه فلم يلحق من تقدمه، وشركه فيه من كان في عصره، وبشار سلك طريقاً لم يُسلك وأحسن فيه وتفرد به، وهو أكثر تصرّفاً وفنون شعر، وأغزر وأوسع بديعاً، ومروان لم يتجاوز مذاهب الأوائل"(الأصفهاني،147/3).

فمن تلك الأفكار القديمة التي كانت عند القدماء واستمرت ووردت في شعر مروان فكرة موت الناقة في سبيل الوصول إلى الممدوح الذي سيكفيه مؤونة الرحلة، وسيبقيه عنده معزَّزاً مكرَّماً لا يحتاج إلى غيره من الممدَّحين، منها قوله يمدح الوليد بن يزيد(ابن أبي حفصة، 33):

هان يا ناقتي عليَّ فسيري*** أنْ تموتي إذا لقيتُ الوليدَا

وقال أيضاً يصف سُراه على نجيبة عزيزة إلى معن بن زائدة الشيباني في قطعة شعرية تُذكر بأسلوب القدماء ومهيعهم(ابن أبي حفصة، 42):

وَلَمَّا سَرَى الهَمُّ الغَرِيبُ قَرَيْتُهُ*** قِرَى مَنْ أزَالَ الشَّكُّ عَنْهُ وَأزْمَعَا

عَزَمْتُ فَعَجَّلْتُ الرَّحِيلَ وَلَمْ أكُنْ*** كَذِي لوْثَةٍ لا يُطْلِعُ الهَمَّ مَطْلَعَا

فأمَّتْ ركَابِي أرْضَ مَعْنٍ ولم تَزَلْ ***إلى أرْضِ مَعْنٍ حَيْثُمَا كَانَ نُزّعَا

نَجَائِبُ لوْلا أنَّهَا سُخِّرَتْ لنَا ***أبَتْ عِزَّةً مِنْ جَهْلِهَا أنْ تُوَزّعَا

كَسَوْنَا رِحَالَ المِيْسِ مِنها غَوَارِبًا ***تَدَارَكَ فِيهَا النَّيُّ صَيْفاً وَمَرْبَعَا

فَمَا بَلَغَتْ صَنْعَاءَ حَتَّى تَوَاضَعَتْ*** ذُرَاهَا وَزَالَ الجَهْلُ عَنْهَا وَأقْلَعَا

وقال يمدح الوزير يحيى بن خالد البرمكي متفائلاً باستراحة ناقته المجتازة المفاوز المهلكة التي تغتال السُّفَّار حين الوصول إلى الممدوح، وبذا سينقطع العسر عن عيشته، ويتصل بحبل اليُسر(ابن أبي حفصة،52):

إذا بَلَّغَتْنَا العِيسُ يَحيَى بنَ خَالدٍ ***أخَذْنَا بِحَبلِ اليُسْرِ وَانْقَطَعَ الْعُسْرُ

سَمَتْ نَحْوَهُ الأبْصَارُ مِنَّا وَدُونَهُ ***مَفَاوِزُ تَغْتَالُ النِّيَاقَ بِهَا السَّفْرُ

فَإنْ نَشْكر النُّعْمَى التي عَمَّنَا بِهَا ***فَحَقٌّ عَلَيْنَا مَا بَقِينَا لَهُ الشُّكْرُ

وفي السياق نفسه قال يمدح الخليفة المهدي ويقرّر غُنم ناقته إن هي حطَّت رحالها عنده(ابن أبي حفصة،102):

إلى المُصْطَفَى المَهْدِيّ خَاضَتْ ركَابُنَا*** دُجَى اللَّيْلِ يَخْبِطْنَ السَّرِيح المَخَدَّمَا

يَكُونَ لَهَا نُورُ الإمَامِ مُحَمَّدٍ ***دَلِيلاً بِهِ تَسْرِي إذَا اللَّيْلُ أظْلَمَا

إذَا هُنَّ أَلْقَيْنَ الرِّحَالَ بِبَابِهِ ***حَطَطْنَ بِهِ ثِقْلاً وأَدْرَكْنَ مَغْنَمَا

وقال يمدح معن بن زائدة الشيباني، وكان قد قصده من اليمامة إلى اليمنرجاء نواله وعطائه الذي حرّك العيس وجعلها تخوض غمار المصاعب والمتاعب(ابن أبي حفصة،106):

هَاجَتْ هَوَاكَ بَوَاكِرُ الأَظْعَانِ*** يَوْمَ اللِّوَى فَظَلِلْتَ ذَا أَحْزَانِ

لَوْلَا رَجَاؤُكَ مَا تَخَطَّتْ نَاقتي*** عَرْضَ الدَّبِيلِ وَلَا قُرَى نَجْرَانِ

وما تبقى من ديوانه لا تكاد تخلو قصيدة مدح أو رثاء[1] من ذكر الناقة على غرار القدماء.

ومنهم سلم الخاسر (ت:186هـ) حين مدح المهدي في مشهد طويل يصف الرحلة والراحلة في نحو اثني عشر بيتاً حيث قال(ابن المعتز، 103):

فإذا عَزَمْتَ فأمضِ هَمَّـــكَ بينَ مَحْمودٍ وذَام

ودعِ النَّوافِحَ في البُرَى *** يسبَحنَ في بحْرِ الظَّلام

***

حتَّى رجَعنَ من السُّرى *** مثلَ الأهلَّةِ في الحِزَام

لم يبقَ غيرَ نواظرٍ *** منها وأخفافٍ دوام

ومنهم أبو الشيص (ت:196هـ) وقد التزم في شعره عمود الشعر، وإن كان قد جدَّد في بعض المقطوعات كما سيأتي في المبحث الثاني لاحقاً إلَّا أنَّه سار كما سار أسلافه في المجمل العام، فمن قصائده التي تبع فيها مذهب الأوائل قوله(الخزاعي،27)يمدح عقبة بن الأشعث الخزاعي:

مرتْ عينَه للشوقِ فالدمعُ منسكِبْ*** طلولُ ديارِ الحيِّ والحيُّ مغتربْ

إلى أن يسترسل في وصف الناقة في قطع الصحراء الموحشة، فيصف قوتها وجلدها وصفاتها الخلقية في بضعة عشر بيت، فيقول:

وبحرٍ يَحارُ الطَّرفُ فيهِ قَطَعْتُهُ*** بمنهوءةٍ منْ غيرِ عرٍّ ولا جربْ

ملاحَكةِ الأضلاعِ محبوكةِ القَرَى*** مداخلةِ الرّاياتِ بالقارِ والخشبْ

موثَّقةِ الألواحِ لم يُدْمَ مَتْنَها ***ولا صفحتَيْها عقدُ رحلٍ ولا قتبْ

ومن جيّد شعره في مدح عقبة بن جعفر إذ يصف المشاق التي واجهها وناقته في مسيره إليه، ويذكر الشعراءغالباً "إليك/إليه" أي إلى الممدوح كأنَّهم يوحون بطلب ردَّ الجميل الذي كان منهم حين عرّضوا حياتهم للخطر والمهالك من أجل لقائه والثناء عليه، فهل يرمون عصا الترحال عنده؟ قال(الخزاعي،71):

أبقى الزمانُ به ندوبَ عضَاضٍ*** ورمى سواد قرونه ببياض

***

وركائبٍ صرفتْ إليكَ وجوهَهَا*** نكباتُ دهرٍ للفتى عضَّاض

شَدُّوا بأعوادِ الرِّحالِ مطيَّهم ***من كلِّ أهوجَ للحصَى رضَّاض

يرمينَ بالمرءِ الطريقَ وتارةً*** يحذفنَ وجهَ الأرض بالرضْرَاض

قطعوا إليك رياضَ كلِّ تنوفةٍ*** ومهامهٍ مُلس المتون عِراض

أكلَ الوجيفُ لحومَها ولحومَهُم ***فأتَوْكَ أنقاضاً على أنقاض

ولقد أتتك على الزمانِسواخطاً ***فرجعنَ عنكَ وهنَّ عنه رواض

وقال أيضاً واصفاً جمله(الخزاعي،98):

أشاقكَ والليلُ ملقي الجران*** غرابٌ ينوحُ على غصن بان

***

وعُجتُ إلى جملٍ بازلٍ*** رحيبٍ رَحَى الزَّوْرِ فحلٍ هِجان

سبوح اليَدَيْن طَموح الجران ***غَؤُولٍلِلأنْسَاعِهِ والبطان

فعضَّيتُ أعوادَ رحْلي بهِ ***ونابَاه من زمع يضربان

فلمَّا استقلَّ بأجرانِهِ*** ولانَ على السَّيْرِ بعضَ اللِّيان

قطعتُ بهِ منْ بلادِ الشآمِ*** خُروقًا يضلُّ بها الهاديان

إلى ملكٍ من بني هاشمٍ*** كريمِ الضَّرائبِ سبطِ البنان

إلى علمِ البأس، في كفِّهِ*** من الجودِ عينان نضَّاختان

وأما أبو نواس (ت:198هـ) وهو من هو في التجديد والتمرّد على هيكل القصيدة عند القدماء عموماً، مع هذانجده لا يأنف من ذكر الناقة ووصفها وبيان المشاق التي تواجهه في الرحلة إلى الممدوح خاصة إذا وقف أمام الخلفاء والأمراءمادحاً، وبحسب ما اطلعتمن ديوانه فإنَّ ذكر الناقة كثير في بابة المدح، وأما تمرده فهو متمرد أحياناً على المقدمة الطللليةبالجملة فيعرّض بالناقة أحيانًا، أو من باب الشعوبية والسخرية من كل ما يعزّ على العرب ويؤثرونه، أو من باب الحياة الحضرية الجديدة وما شاع فيها من خمر ومجون هو أولى بالنسبة له من البكاء على الأطلال والتشبيب بالمحبوبة ووصف الإبل التي ما قطع بها مفازة قط! فمّما ورد من وصفهللرحلة والراحلة حين قاليمدح الرشيد(الحكمي،106/1):

حيِّ الديارَ إذْ الزَّمانُ زَمانُ*** وإذْ الشَّبَابُ لنَا حَرًى ومَعَانُ

لمَّا نَزَعْتُ عَنْ الغوَايَةِ والصِّبا*** وَخَدَتْ بيَالشَّدَنِيَّةُ المِدْعَانُ

سُبُطٌ مَشَافِرُها دَقيقٌ خَطْمُها ****وكأنَّ سائرَ خَلْقِها بُنيانُ

واحْتَازَها لونٌ جَرى في جِلْدِهَا ***يَقَقٌ كَقِرْطَاسِ الوليدِهجانُ

وقال وهي من أشهر قصائده في مدح الخليفة محمد الأمين(الحكمي،126/1):

يا دارُ ما فعلتْ بك الأيامُ؟*** لم تُبْقِ منك بشاشةً تُستامُ

***

وتجشَّمتْ بي هولَ كلِّ تنوفةٍ ***هوجاءَ فيها جرأةٌ إقدامُ

تذرُ المطيَّ وراءَها وكأنَّها*** صفٌّ تقدمهنَّ وَهْيَ إمامُ

فإذا المطيُّ بنا بلغنَ محمدًا *** فظهورهنَّ على الرِّحالِ حرامُ

قرَّبننا من خيرِ من وطئَ الحصَى***فلهَا علينا حُرمةٌ وذمامُ

وقال يمدحه أيضاً(الحكمي،130/1):

أقولُ والعيسُتَعْرَوْرِي الفَلَاةَ بنا ***صُعُرَ الأزمَّةِ مِنْ مَثْنَى ووحدانِ

لذاتِ لوثٍ عفرناةٍعُذافِرةٍ*** كأنَّتضبيرَهاتضبيرُ بُنيانِ:

"يا ناقُ لا تسأمي أو تبلغي مَلِكًا*** تقبيلُ راحتِهِ والرُّكنِ سِيَّانِ"

محمدٌ خيرُ من يمشي على قدمٍ*** ممَّن بَرى اللهُ منْ إنسٍ ومن جانِ

متى تَحُطِّي إليهِ الرَّحْلَ سالمةً*** تستجمعي الخَلْقَ في تمثالِ إنسانِ

وأبياته كثيرة في هذا السياق لا يُسعف المقام إلى ذكرها[2]، وهي تختلف طولاً وقصراً في القصيدة الواحدة.

المبحث الثاني: التجديد في توظيف الإبل عند الشعراء المحدثين

مع التحول الكبير الحاصل في المجتمع الإسلامي والعربي بتقلد العباسيّين سدة الخلافة والملك، وقيام الدولة على أكتاف الفرس، وإتاحة الفرصة للعجم عموماً من الدخول في المناصب العليا للخلافة، ووصولهم لمراكز الحل والعقد في الدولة، ووصول أصواتهم المكتومة سابقاً في الدولة الأموية نتج عن ذلك ظهور تحولات جديدة على جميع مناحي الحياة في المجتمع العباسي، ومن أبرز تلك الظواهر الجديدة: الزندقة، والشعوبية، والمجون، والزهد. وكان لها انعكاساتها على الصعيد الأدبي عموماً والشعري خصوصاً.

ومن أبرز تلك التحولات في الشعر هو التمرد على عمود الشعر، والخروج من عباءة القدماء، والتجديد في مذهب الصنعة وإدخال البديع، والعزوف عن هيكل القصيدة القديم، فلم يعد للأطلال كبير أهمية كما كان سابقاً، ولم يحتفل الشعراء المحدثون بالراحلة، وتمرّدوا على مهيعهم المعهود، وراحوا يبتكرون ويصدحون بأشعارهم انطلاقاً من قولهم: نحن رجال وهم رجال، ولم يقصر الله الشعرعلى زمن دون زمن، ولا خُصَّ به أحد دون أحد.

ولو رُزنا تلك الأشعار التي تمرَّد فيه المحدثون على عمود الشعر وتحديداً على مشهد الرحلة والراحلة وذكر الناقة لأرجعناهاإلى عدّة أسباب:

منهاالشعوبية، وهي الانتقاص من العرب والثلب عليهم وعلى عاداتهم وأحوالهم وطرائقهم في العيش انتقاماً من العهد السالف الذي أقصاهم، ودفن مواهبهم، وافتخاراً بأصولهم التي ترجع وتنتمي لأعظم مملكتين حكمتا العالم آنذاك قبل الفتوحات الإسلامية: الفرس والروم، ولا يخفى على ناظر مكانة الإبل عند العرب وحضورها في عيشهم ومعاشهم كما قدّمنا، فعرَّضوا بها هُزءاً بالعرب وبموروثهم المعنويّ والماديّ.

وخير مثال علىهذا ما كان من أبي نواس وهو رائدمن روّاد الشعراء المحدثين في التمرد على المقدمة الطللية، كقوله(الحكمي،196/3):

قل لمن يبكي على رسم درسْ واقفاً، ما ضرّ لو كان جلسْ

اتركِ الربعَ وسلمى جانباً واصطبحْ كرخيَّةٌ مثلَ القبسْ

وأما الشعوبية على العرب فمن ذلك حين راح يسخر منهم ومن عيشهم البئيس، وقلة متعهم وجفاء أكلهم وشرابهم وركوبهم، ولا أدلَّ على ما تقدّم من قصيدته الشهيرة التي يتمرد فيها على المقدمة الطلليَّة، ثم يشرع في الشعوبية والتهكم(الحكمي،41/3):

دع الأطلالَ تَسفيها الجنوبُ وتُبلي عهدَ جدَّتها الخُطوبُ

وخلِّ لراكبِ الوجناءِ أرضاً تخبُّ بها النجيبةُ والنجيبُ

***

إذا رابَ الحليبُ فُبُلْ عليهِ ولا تحرجْ فما في ذاكَ حوبُ

فمن لوازم الشعوبية الانتقاص من كل ما من شأنه إعلاء العرب، وما كانوا يفتخرون به ويحبونه، فيكسر –بتهكم– القواعد الثابتة من البكاء على الأطلال والوقوف عليها، ولم يكتف بالمطالبة بتركها، بل يمعن في غيظهم حين يدعو عليها أن تَطمرها الرياح السوافي، وأن تُبليها الخطوب التوالي، ثم يزيد من السخرية بأن تُترك الصحراء لمريديها ممَّن لا يزال على عهده القديم يركب الناقة الشديدة، فذكر الإبل "الوجناء/النجيبة/النجيب" في سياق السخرية والتهكم بالعرب.

وفي قصيدة له أخرى يبتدئها بعدم الجدوى من البكاء على الظاعنين والوقوف بالمطيّ على دمنهم، فيقول(الحكمي،351/3):

لا تبكِ للذاهبين في الظُعُنِ ولا تقفْ بالمطيِّ في الدمنِ

"ومضى يتخذ من هذه المقدمة البدوية مادة السخرية من العرب والتندر عليهم"(خليف،66).

ومنهانمط العيش الجديد الذي اختلف عن عهد الترحال خلف الغيث والمراعي.عهد جديد قائمعلى الاستقرار في الحاضرة والعمران بين الجواري والأغاني واللهو والطرب التي صارت سوقاً رائجة في تلك الفترة الزاهية للخلافة، فما السبب الداعي للشاعر أن يصف راحلة لم يركبها إلا في مسافات قصيرة في المدينة، وماخاطر معها يوماً في رحلة لا منجى منها إلا على ظهر ناقته الأثيرة، فغيّروا المقدمات عزوفاً عن البكاء على الأطلال، واستعاضة عن وصف الرحلة والراحلة بما يرونه مناسباً لواقعهم، أي أنَّ الباعث على التغيير هي الحداثة والمعاصرة آنذاك.

فمن أبرز من جدَّد في هذا السياق أستاذ الشعراء المحدثين وسيّدهم ومن لا يُقدّم عليه ولا يُبارى في ميدانه بشار بن برد (ت: 167هـ) ومن زوايا التجديد في موضوع الرحلة والراحلة عقد المقارنة بين الناقة والسفينة في غير ما موضع وقصيدة في مدح بعض الخلفاء كالمهدي والهادي، أو القادة كابن هُبيرة وهي فيه يبتدئها بقوله(ابن برد،145/1):

سلّم على الدارِ بذي تنضُبِ *** فشطُّ حَوْضَى فلِوى قَعْنَبِ

واستوقفِ الرَّكبَ على رسمِها *** بل حُلَّ بالرَّسمِ ولا تركبِ

إلى أن يقول:

وملعبِ النونِ يُرَى بَطْنُه *** من ظهره أخضرَ مُسْتَصْعِبِ

عطشانَ إنْ تأخُذ عليه الصبّا *** يَقْحِشْ على البُوصيِّ أو يصْخَبِ

ثم يصف السفينة الثيّب أو البكر التي ركب على ظهرها:

لمَّا تيمَّمْتُعلى ظهرها *** لمجلسٍ في بطنِها الحوْشبِ

هيَّأتُ فيها حين خيَّستُها *** من حالكِ اللونِ ومن أصهَبِ

فأصبحتْ جارية بطنُها *** ملآنُ من شتى فلم تُضربِ

لا تشتكي الأيْنَ إذا ما انتحتْ *** تُهدى بهادٍ بعدها قُلَّبِ

وفي قصيدة له أخرى يصف مسير السفينة لا الناقة على غير عادة العرب ويعقد مقارنة بينهما مع بيان تفوّق السفينة التي لا تتعب في المسير ولا تأكل ولا تشرب فلا كلفة عليها،وهي في مدح الهادي، قال(ابن برد،283/2):

وقُرِّبت لمسيرٍ منك يومئذٍ *** مراكبٌ منك لم تولد ولم تلدُ

تَغلي بهنَّ طريقٌ ما به أثرٌ *** في مستوى ما به حزنٌ ولا جَدَدُ

لا في السماء ولا في الأرضِ مسلكُها *** ولا تقومُ ولا تمشي ولا تخدُ

ولا يذقنَ أكالاً ما بقينَ ولا *** يشربنَ ماءً وهُنَّ الشُّرَّعُ الوُرُدُ

جونٌ مُجلَّلةٌ قُعسٌ مجرشعةٌ *** ما باتَ يُرمضها أيْنٌ ولا خصَدُ

ومن ذلك التمرد على المقدمة الطلليةقول أبي نواس معلّلاً وشارحاً أسباب الترك والهجر وهي أنَّه لا ناقة له ولا جمل بالرحلة والراحلة حتى يصفها، فالمعطيات الحضرية قد تغيرت، فيقول(الحكمي،190/3):

ما لي بدارٍ خلتْ من أهلها شُغُلُ *** ولا شجانيلها شخصٌ ولا طللُ

ولا رسومٌ ولا أبكي لمنزلةٍ *** للأهلِ عنها وللجيرانِ منتقلُ

ولا قطعتُ على حرفٍ مذكَّرةٍ *** في مرفقَيْها إذا استعرضتها فتَلُ

بيداءُ مقفرةً يوماً فأنعتُها *** ولا سرى بي فأحكيه بها جملُ

***

ولا شددتُ بها من خيمة طُنباً *** جاري بها الضبُّ والحرباءُ والورلُ

لا الحزنُ منّي برأي العينِ أعرفُهُ *** وليسَ يعرفني سهلٌ ولا جبلُ

نعتي رياضاً لنا قد كانَ يُعجبني *** ما إن رعَتْ لأبي في نبتها إبِلُ

ومنها الانطلاق من المجون والظرف والعبث المتفشي في تلك الحقبة، ولذا جددوا على الشكل القديم الذي لايتناسب مع معطيات العصر الجديد بتقلباته وتجديداته على جميع الأصعدة، فرأوا الخمرة بديلاً عن البكاء على الأطلال التي ما وقفوا عليها، ورأوا مشهد الناقة خارجاً عن مرادهم شيئاً زائداً مختلفاً عن ذي قبل قيمة واستخداماً فاختصروه أو حذفوه أو غيروا مناط النظر فيه، وربما ناقشوا فكرة الناقة من نظرة أخرى غير نظرة القدماء، وتناولوها بالنقد والمعارضة.

فأبو نواس مثلاً حين أراد أن يمدح هارون الرشيد وبظرفه المعتاد أراد أن يكسر أفق توقع المتلقي، فهو لا يعدّي ناقته للممدوح، وإنما إلى بيت حان! فهو يوظف الناقة في غير السياق الذي كانت تستخدم من أجله، قال(الحكمي،122/3):

فلما بدا لي اليأس عدَّيْت ناقتي*** عن الدار واستولى عليَّ عزائي

إلى بيت حان لا تهر كلابه ***عليَّ ولا ينكرن طول ثوائي

وذكر أبو نواس أيضاً غيلان مقروناً بناقته الأثيرة عنده، والمشهورة في رحلاته إلى ديار ميَّة "صيدح" التي سماها غير مرَّة في شعره، ووصفها فأطال وأجاد، حتى عُرف بها وعُرفت به، ذكرهما أبو نواس في سياق التهكم –كعادته– للأمور القليلة الأهمية بالنسبة له، ولكي يُبرِّز ما سيذكره بعدُ في القصيدة مما هو مُهمٌ ويستحق الوقت والجهد والبذل والشعر أيضاً، وذلك من قوله في غلام اسمه (عبد يشوع) يصف الخمر والدير(الحكمي،153/5):

خلِّ (لغيلانَ) نعتَهُ صيْدَحْ ودعْ جريراً بشعره يمدَحْ

وعُجْ بنا نعترضْ مُخدَّرةً عذراءَ لمْ تُفتَرعْ ولمْ تُنكحْ

فالخمرة –بزعمه– هي الموصوف الأسمى، والموضوع الأهم، لا وصف رحلة ولا ناقة، ولا وقوف عند باب ممدوح! كل ذلك لا يأبه به أبو نواس ما خلا معشوقته العذراء البكر التي لم تُفترع، إليها يحث الخُطا، وفيها يصوغ القصائد والنعوت.

ففي هذا الشاهد تنبيه على اقتدار ذي الرمة وصف ناقته وصفاً بليغاً، وهذه ملاحظة دقيقة من أبي نواس، فغيلان من أوصف الناس لراحلته، "مفتون بوصف الإبل"(خليف،154)، وبالأخص ناقته المذكورة "صيدح"، ذكرها غير مرة، منها ما جاء في قصيدته التي مدح بها بلال بن أبي موسى الأشعري، قال(ذي الرمة،1535/3):

سمعتُ الناسَ ينتجعونَ غيثاً فقلتُ لصيدحَ: انتجعي بلالا

وذكرها في قصيدته الحائية التي عُرفت بقصيدة "صيدح"، فقد سُئل ابن الأعرابي عن ذي الرُّمة؟ قال: شاعر، قيل: ما تقول في قصيدته صيدح؟ قال: هو بها أعرف منها به(ابن منظور،12/12).

لقوله فيها(ذي الرمة،1216/2):

إذا ارفضَّ أطرافُ السياطِ وهُلِّلتْ جُرومُ المطايا عدَّبتهُنَّ صَيْدحُ

ثم استرسل في وصفها فيما يزيد عن عشرة أبيات، وصفاً دقيقاً من صاحب معرفة وخبرة.

ومنها أحيانًا قد يوظف الشعراء المحدثون الإبلفي مناقشة فكرية حول قضية شائعة خطأ،فمن ذلك ما ناقشه أبو الشيص محمد بن عبد الله بن رزين الخزاعي من التشاؤم بالغربان وما يُسمَّى عند العرب قديمًا "غراب البين"، وقد دفع التهمة حجاجياً بعقله وما يراه عياناً في أرض الواقع من أنَّ الغراب لا شأن له بالفراق عن الأهل والأحباب والديار! وبيَّن السبب الحقيقي وراء ذلك ألا وهي الإبل التيتحمل الظعائن ويرتحل الناس على ظهرها. قال(الخزاعي،87):

ما فرَّقَ الأحبابَ بعدَ اللهِ إلاَّ الإبلُ

والناسُ يلْحُونَ غُرابَ البَيْنِ لمَّا جَهلُوا

ومَا إذا صَاحَ غُرابٌ في الدِّيارِ احْتَمَلُوا

وما عَلى ظَهْرِ غُرابِ البَيْنِ تُطْوى الرُّحُلُ

وما غُرابُ البينِ إلَّا نَاقةٌ أو جَمَلُ

وكذا أبو نواس على عادته في التهكم والسخرية قد ناقش فكرة رائجة عند القدماء وهي ذبح الناقة إن هي أوصلته إلى الممدوح سالماً معافى من الأخطار التي تحدّق به في رحلته، إذ تناول الأدباء والشعراء هذه الفكرة فانقسموا حيالها إلى فريقين، فريق مؤيد لمذهب الشماخ بن ضرار –من قتل ناقته التي حملته– إذ قصد بذلك أن يقول: لستُ محتاجاً إلى أن أرتحل إلى ممدوح سواه، ففيه الكفاية وعنده الغنى والمستقر، وكان الشماخ قد أراد المدينة ليمتار منها، فملأ عرابة رواحله براً وتمراً، وأتحفه بغير ذلك فقال(المبرد،167/1):

رأيتُ عرابة الأوسيَّ يسمو *** إلى الخيراتِ منقطعَ القرينِ

إذا ما رايةٌ رُفعت لمجدٍ *** تلقَّاها عرابةُ باليمينِ

إذا بلّغتِني وحملتِ رحلي *** عرابة، فاشرقي بدمِ الوتينِ

وقيل: إن بيته هو الأصل في هذا المعنى، وتبعه في ذلك ذو الرمة حين أراد مدح بلال بن أبي موسى الأشعري، فقال(الخالديان،59/1):

إذا ابنَ أبي موسى بلالاً بلغتِهِ *** فقامَ بفأسٍ بين وصليْكِ جازرُ

وتبعهما أبو دُهبل الجمحيحين قال(القيرواني،292/2):

يا ناقُ سيري واشرقي *** بدمٍ إذا جئتِ المغيرةْ

سيشيبني أخرى ســــــــواكِ، وتلكَ لي منه يسيرةْ

وفريق آخر معارض لقول الشماخ، فقد قال بعض الرواة:"كان ينبغي أن ينظر لها مع استغنائه عنها"(المبرد،168/1)، قال عبدالله بن رواحة مُثنياً عليها إن هي بلّغته مُراده(المبرد،168/1):

إذا بلغتِني وحملتِ رحلي *** مسيرةَ أربعٍ بعدَ الحساءِ

فشأنكِ فانعمي وخلاكِ ذمٌّ *** ولا أرجعْ إلى أهلي ورائي

وقال الفرزدق مخاطباً ناقته التي تحمله إلى خير الناس الخليفة عبدالملك بن مروان(الخالديان،59/1):

عــلامَ تلفَّتينَ وأنتِ تــحتي *** وخيرُ الناسِ كلّهمُ أمامي

متى تردي الرصافة تستريحي *** من الأنساعِ والدَّبَرِ الدوامي

حتى نصل إلى أبي نواس واعتراضه علانية على بيت الشماخ، فقد قال أبو العيناء(العسكري،210):"سمعتُ أبا نواس يقول: والله ما أحسن الشماخ حيثُ يقول:

إذا بلّغتِني وحملتِ رحلي *** عرابة فاشرقي بدمِ الوتينِ

هلَّا قال كما قال الفرزدق...، وكان قول الشماخ عيباً عندي، فلما سمعتُ قول الفرزدق تبعته". قال أبو نواس(الحكمي،127/1):

فإذا الــمطيُّ بــنا بلغــنَ محمداً *** فظهورهنَّ على الرحالِ حرامُ

قرَّبننا من خيرِ مَنْ وطِئَ الحصى *** فلهَا علينا حُرمةٌ وذِمامُ

وقال يُعارضه مباشرةً على نفس الروي والقافية(الحكمي،128/1):

أقول لناقتي إذْ بلَّغتني *** لقد أصبحتِ عندي باليمين

فلم أجعلك للغربان نُحلاً *** ولا قلت: اشرقي بدمِ الوتين

وتبعهم أبو تمام –وإن لم يكن في الحقبة المدروسة ولكن إتمامًا للفائدة– على مذهب إكرام الناقة التي تحمله إلى الممدوح وحفظ عهدها، من قصيدة له في مدح مالك بن طوق، فلما أتى على ذكر الرحلة والناقة التي تحمله قال(أبي تمام،167/6):

ولستُ (شماخاً) الذي جارَ في *** سوءِ مكافاتِه ومُجترَمِهْ

أشرقَها في دمِ الوتينِ لقدْ *** ضلَّ كريمُ الأخلاقِ عن شِيَمِهْ

ذلك حكمٌ قضى بفيصله ***أحيحةُ بنُ الجُلاحِ في أصُمِهْ[3]

فأبو تمام أيضاً يعترض على الشماخ في سوء رأيه ومكافأته ناقته التي حملته إلى الممدوح، وقد أبدى النقاد والعلماء آراءهم حول تلك القضية، وأرى أنَّ الشماخ لم يُسئ في قوله إن لم يفعل ما قال ويُقدم على ذبح ناقته، فهو إنما قصد المبالغة في المدح والثناء إذ لن يحتاج إلى سفر ورحلة بعده، فقد كفاه ذلك الممدوح بكرمه وعطائه، وكذا قد أحسن الفريق الآخر فيما قصد من إكرام الناقة والإحسان إليها لما رآه منها من جسارة وتحمل لمشاق السفر والرحلة، وهذه هي الفطرة المحمودة في الإنسان، وبذا جاءت الشريعة السمحاء حين نذرت امرأة كانت أسيرة عند المشركين إن نجَّاها الله منهم على العضباءلتنحرَنَّها، فنجت وأتت المدينة، فعرف الناس الناقة وقالوا: ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتي بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبر بنذرها فقال: "بئسما جزيتها أو جزيتيها، لا نذر في معصية ولا فيما لا يملك ابن آدم"(الدارقطني،323/5)، وهذا الحديث أصل في باب الناقة ومجازاتها كما ذكر الرواة والعلماء في كتبهم.

ومن خلال أبيات أبي نواس يمكننا أن نتبيَّن ما لشعراء العصر العباسي الأول من استقلالية في اختيار المعنى الذي يرونه صحيحاً، وإن خالف السمت الجاهلي، ونراهم يعترضون صراحة على الشماخ دون محاباة لشاعر، ولا تقديس لقديم، فالحق أحق أن يُتَّبع.

ومنها في باب الرثاء –وهو موضوع نادر–أن يوظف الشاعر الإبل في التمهيد قبل ذكر محاسن ميته في مشهد دراميّ مؤثر تذوب له النفوس وتدمع له العيون، ولم أجده فيما قرأت من قصائد الرثاء في العصرين الجاهلي والأموي، وهذا من التجديد العجيب الذي جاء به عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي في مرثيَّته لأخيه سعيد وهي من عيون المراثي، ومن الطوال الجياد، ومطلعها(مردم بك،561):

فما أمُّ سقبٍ أودعته قرارةً *** من الأرضوانساحتْ لترعى وتهجعَا

لحيسٍ كمثلِ الأيهقانِ ابنِ ليلةٍ *** أمرُّ قواهُ أن ينوءَفيركعَا

ويهتزُّ في الممشى القريبِ كأنَّه *** قضيبٌ من البانِ ارتوى فترعرعَا

فظلَّتْ بمستنّ الصَّبا من أمامهِ *** تُنعِّمُ في المرعى إليهِ ليَسْمَعَا

ويمعن في رسم المشهد الآمن الوديع بين الناقة وولدها اللحيس ابن اليوم والليلة، فهي تتقدمه في المراعي وتنادي عليه كلما أخفته الحشائش ليعرف مكانها، فخالفها –عنصر المفاجأة– السباع إلى ولدها ولم يدع منه إلا مزق جلد! ثم يصف انكسارها عند رؤية ما تبقى من أشلائه فارتمت عليه وشمَّتها. قال:

مولَّهةٌ لم يترك الوجدُ عندها *** بواحدها إلا فؤاداً مُروَّعَا

فطافتْ بملقاهُ ومصرع جنبهِ *** فسافتْ دماً منه وشلواً مُقطَّعَا

***

فقامتْ أخيرَ البرْكِ يَدعُو حنينها *** حنين المواليهِ الثكالى المُرجَّعَا

واستغرق مشهد الإبل قرابة العشرين بيتاً قبل أن يبدأ بالغرض الرئيس من البكاء على أخيه سعيد وذكر محاسنه، والقصيدة نيّفت على المائة بيت، وهي عظيمة في بابها.

الخاتمة:

بعد عرض الشواهد المجموعة من توظيف الشعراء المخضرمين وأوائل المحدثين في العصر العباسي الأول وتحديداً القرن الثاني الهجري للإبل توصل الباحث إلى نتائج وتوصيات:

- انقسم الشعراء في تلك الحقبة إلى قسمين: قسم سرى على نهج القدماء، واتَّبع آثارهم. وقسم جدَّد في القصيدة وتمرّد على عمود الشعر ومن ذلك التمرّد على مشهد الرحلة والراحلة وذكر الناقة، تغييراً واختصاراً.
- من أشهر الشعراء المقلدين لمذهب الأوائل مروان بن أبي حفصة الذي بقي على هيكل القصيدة الجاهلية، وله قصائد كثيرة في المدح حاز بها على جوائز لم يُسبق إليها.
- ومن صور التجديد في توظيف الإبل ذكرها في سياق الشعوبية والانتقاص من العرب والثلب عليهم وعلى حيواتهم ومعاشهم، كما في بعض أشعار أبي نواس.
- ومن صور التجديد –كما عند أبي نواس– الاعتراض على توظيفها من باب الحياة الحضرية الجديدة التي ما تركت للسفر والترحال، ولا الرحلة والراحلة من أثر كبير كسالف العصور، فما للشاعر العباسيّ الذي يتمتع برغد العيش في بغداد وما للناقة!
- ومن صور التجديد أيضاً عقد المقارنة بين السفينة التي تمخر عباب البحر دون كلل أو تعب أو مأكل أو مشرب وبين الناقة التي يتحمل صاحبها ما سبق، وقد تكررت المقارنة عند بشار بن برد.
- ومن صور التجديد مناقشة القضايا المتعلقة بالناقة، والأخذ والردّ على القدماء بأفكارهم التي فرضوها، كما فعل أبو الشيص حين رفض التشاؤم بغراب البين الذي لا علاقة له بالفراق، وإنما الأولى التشاؤم بالإبل التي تحمل رحالكم وترتحل بكم.
- ومن ذلك مناقشة أبي نواسلفكرة قتل الناقة التي توصل صاحبها إلى الممدوح، واعترض على ذلك وقال الأولى إكرامها لما قامت به من اجتياز المفاوز وقطع الفيافي والقفار.
- ومن التوصيات المهمة التتبع "الموضوعاتي"في المدونة الشعرية لحقبة ما، أو قرن محدد ليفتح الآفاق إلى فضاءات بحثية أرحب وأوسع، ويجعل التصور للموضوع المدروس تصوراً أوضح وأبيندون لبس أوتلكؤ في إصدار الأحكام الرصينة المؤصلة.

Abstract

The Use of Camels among the Poets of the Second Hijri Century: Between Tradition and Innovation

By Abdul Rahman Abdul Hamid Al-Sharqawi

Modern poets of the second Hijri century revolutionized the form and content of poetry, drawing inspiration from urban reality, Shu'ubiyya, and occasionally from revelry and debauchery. This innovation served as a gateway to rebelling against traditional poetic conventions and structures, diverging from the norms of ancient poetry and its traditions. A critical question arises: Did this change extend to the depiction of the camel (naqa) in travel scenes in their poetry؟

An examination of various collections from that era reveals that some poets, such as Hammad Ajrad, completely abandoned the mention of the camel. Others minimized its use or redefined its symbolic role, contrasting with older traditions. For instance, some poets portrayed the camel as an omen of misfortune, such as Abu Shi's, or used it as a source of satire for Shu'ubiyya poets like Abu Nuwas. Some even replaced it with descriptions of ships (harraqa) or made comparisons between ships and camels, as seen in the poetry of Bashar bin Burd. However, some imitators continued to skillfully employ the camel in their praise or elegies, rivaling their pre-Islamic and Umayyad predecessors, such as Marwan bin Abi Hafsa and Ibn Miyadah.

The aim of this research is to compile and analyze these scattered references, enriching Arabic literature by exploring the semantic and symbolic evolution of the camel in poetry, particularly during the transition between the Umayyad and Abbasid periods. It highlights the innovations and rebellions that impacted the form and content of poetry.

Keywords: camel, modern poets, Abbasid period, innovation.

الهوامش

[1] انظر ديوانه: ص16، ص36، ص40، ص51، ص58، ص68، ص96.

[2] انظر على سبيل المثال في ديوانه ج1: ص144، ص156، ص163، ص170، ص192، ص199، ص211، ص221، ص239، ص249، ص253، ص265، ص306، ص307، ص312، ص325، ص334، وغيرها.

[3] قال أحيحة بن الجلاح للشماخ عندما أنشد أبياته: " بئس ما كافأتها به شماخُ ". وهذا ما عناه أبو تمام هنا.

قائمة المصادر والمراجع

- أشعار أبي الشيص الخزاعي، تحقيق: عبد الله الجبوري، مطبعة الآداب:بغداد، 1967م.
- الأغاني، الأصفهاني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2010م.
- الخالديان، محمد بن هاشم وسعيد بن هاشم، حماسة الخالديين، تحقيق: محمد علي دقلة، وزارة الثقافة:سورية، 1995م.
- خليف، يوسف، في الشعر العباسي، دار غريب:القاهرة.
- خليف، يوسف، ذو الرمة شاعر الحب والصحراء، دار المعارف: مصر.

- الدارقطني، أبو الحسن، سنن الدارقطني، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، حسن شلبي، عبداللطيف حرز الله، أحمد برهوم، ط1، مؤسسة الرسالة:بيروت ، 2004م.
- ديوان أبي نواس الحسن بن هانئ الحكمي، تحقيق: إيفالدفاغنر، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت، 2015م.
- ديوان بشار بن برد، تحقيق: محمد الطاهر بن عاشور، تعليق: محمد رفعت ومحمد شوقي، مطبعة لجنة التأليف: القاهرة، 1950م.
- ديوان ذي الرمة، شرح أبي نصر الباهلي رواية ثعلب، تحقيق: عبد القدوس أبو صالح، ط1، مؤسسة الإيمان:جدة،1982م.
- ابن رشيق القيرواني، العمدة في صناعة الشعر،تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، ط5، دار الجيل:مصر،1981م.
- شعر ابن ميادة، جمع وتحقيق: محمد الدليمي، مطبعة الجمهور:الموصل.
- شعر مروان بن أبي حفصة، جمع وتحقيق: حسين عطوان، ط3، دار المعارف:القاهرة.
- العسكري، أبو هلال، الصناعتين، تحقيق: علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية:بيروت، 1419هـ.
- الغيث، نسيمة، الحركة البينيَّة في البائيَّة الكبرى لذي الرمة، الدار المصرية السعودية:القاهرة، 2004م.
- المبرد، أبو العباس، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد الدالي، ط4، مؤسسة الرسالة:بيروت، 2004م.
- مردم بك، خليل، عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي، مجمع اللغة العربية دمشق، العدد 4/مجلد32، 1957م.
- المستوفى من شعر أبي تمام، صنعة محمد أبو شوارب، مؤسسة عبدالعزيز سعود البابطين:الكويت، 2014م.
- ابن المعتز، عبد الله، طبقات الشعراء المحدثين، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف:القاهرة.
- ابن منظور، جمال الدين، لسان العرب، ط3، دار صادر:بيروت، 1414هـ.